حجاجية الصور الفنية في الحديث النبوي الشريف

الباحثة فاطمة الزهراء عابيدي
حاصلة على شهادة الدكتوراه في الدراسات العربية
المغرب

هيكلة الدراسة:

- تمهيد
- حجاجية الصورة التشبيهية
- حجاجية الصورة الاستعارية
- حجاجية الصورة الكنائية
- خاتمة

تمهيد

إن ما يميز النص الحديثي ويجعله متفردا ومختلفا عن غيره، هو هيمنة العنصر الديني فيه. فرسالة محمد صلى الله عليه وسلم هي نشر الدعوة الإسلامية، ونشر تعاليم الدين وقيمه. وقد كانت أحاديثه صلى الله عليه وسلم وسيلة من وسائل البيان في نشر الإسلام، وزرع بذور الخير في قلوب المسلمين واقتلاع أصول الشر منها. وكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم أصعب من مهام غيره من الأنبياء، ذلك أن باقي الأنبياء والرسل بعثوا إلى أقوامهم فقط، في حين بعث خير البرية، إلى عامة الناس بشيرا ونذيرا. وأكد ذلك عليه السلام بقوله: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"[1]. ومن هنا كان تبليغ الدعوة أمرا يحتاج تعدد وتنوع الأساليب من أجل التأثير والإقناع. وبالتالي الاعتبار والانتفاع، وتعدد الأساليب راجع إلى تنوع المخاطَب وحالاته. فكان ذكاء من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُضمن أحاديثه أساليب وصور فنية تجعل نصه أكثر تناسبا واتساقا وأكثر تأثيرا وإقناعا. وهذا ما نلمسه في مختلف الأحاديث النبوية، بحيث لا يكاد يخلو كلامه من تشبيه بليغ يتناسب والصورة التي يود صلى الله عليه وسلم تقريبها للمتلقي، كما لا يكاد يخلو من استعارات وكنايات وغيرها. وكلها أمور تؤدي دورا ومعنى مقصودا.

ولا شك أن الحديث النبوي الشريف يرتقي من حيث الفصاحة والبلاغة والصياغة بعد القرآن الكريم، فقد شدت النصوص الأدبية والعلمية نطاقها به، لذلك يعد أهم النصوص الأدبية والعلمية بعد كتاب الله عز وجل، كما يعتبر ثروة في عالم الأدب والعلم تفخر بها الإنسانية على مدى الزمن.

وقد أوتي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، وفواتحه وجمال الأسلوب الأدبي ذا الخيال الرائع والتصوير الدقيق. ونصوص الحديث النبوي نصوص نثرية، ويراد بالنثر في الأدب العربي النثر الفني وهو الذي يخضع لقوانين معينة، كأن يحتوي أفكارا منظمة تنظيما حسنا، ومعروضة في أسلوب جذاب، حسن الصياغة، جيد السبك، جاريا على قواعد النحو والصرف[2].

والحديث عن بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم دليل على اشتمال كلامه على صور بيانية جاءت في أبهى حلة. وقد بين الرافعي قيمة الصور البيانية في الحديث النبوي الشريف بقوله: إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية، رأيته في الأولى مُسددَ اللفظ مُحكم الوضع جزل التركيب، متناسِب الأجزاء في تأليف الكلمات فخم الجملة واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفاً مضطرباً، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرُها أتم منها أداة للمعنى وتأتياً لسره في الاستعمال، ورأيته في الثانية حسن المعرِض، بين الجملة، واضحَ التفضيل، ظاهِرَ الحدود جيدَ

الرصفِ، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديعَ الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان. ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراهاً، ولا ترى اضطراباً ولا خطلاً، ولا استعانة من عجز، ولا توسعاً من ضيق، ولا ضعفاً في وجه من الوجوه"[3].

وتتعدد الصور البيانية في الخطاب النبوي، وذلك لأغراض دينية وسياسية واجتماعية وبلاغية. وهذا ما سنحاول الإلمام ببعضه في هذا المعرض، محاولين بذلك إدراك الحجاج في الصور الفنية النبوية، أي بيان كيف يتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من الصورة الفنية أسلوبا حجاجيا، يسعى من خلاله إلى إقناع المخاطبين. وقد يبدو الأمر مختلفا بعض الشيء ذلك أن الوظيفة الأساس أو الأولى إن صح التعبير للصورة الفنية هي الإمتاع، وهنا نقول أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يبدأ في إيصاله للمواعظ والعبر وفي إعطائه للأحكام بالإمتاع ليمر بالإقناع ويصل إلى الانتفاع، وهكذا كان أسلوبه صلى الله عليه وسلم يتكون من ثلاث أسس تربطها علاقة استلزام، بحيث يؤدي الواحد منها للآخر، فالإمتاع يستهدف بالأساس الآذان والقلوب، والذي تستصيغه الأذن ويرتاح له القلب، يقتنع به العقل مباشرة ويتقرر في الذهن، وهنا يأتي الانتفاع كنتيجة لعمليتين أساسيتين.

الحجاج في الصورة التشبيهية

ونبدأ أولا بالحديث عن الحجاج في الصورة التشبيهية النبوية، لكن وقبل الشروع في الموضوع، لابد أولا من تقديم تعريف موجز لمفهوم التشبيه في اللغة والاصطلاح.

التشبيه لغة:

يقول ابن فارس: "الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لونا ووصفا. يقال شبه وشبه وشبيه[4].

وللتشبيه في اصطلاح البلاغيين معان كثيرة إلا أنها رغم اختلافها في الألفاظ تتفق في المعنى. ونورد هنا تعريف ابن رشيق الذي يقول فيه: "التشبيه: صفة الشيء بما **قاربه وشاكله**، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه، ألا ترى أن قولهم: **خدٌّ كالورد** إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها، لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه. فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر؛ لأن الجواهر في الأصل كلها واحد، اختلفت أنواعها أو اتفقت"[5].

ويعرفه التنوخي بقوله: التشبيه هو الإخبار بالشبه، وهو اشتراك الشيئين في صفة أو أكثر ولا يستوعب جميع الصفات"[6].

وما يمكن أن نخرج به، أن التشبيه بيان شيء أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر. ويكون ذلك بأدوات منها الكاف. ووظيفتها أنها تقرب بين المشبه والمشبه به في وجه الشبه[7].

وبعد هذه التعريفات سنحاول بيان الصورة التشبيهية في بعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم ومعرفة قيمتها البلاغية ودورها في تأدية المعنى وفي إقناع المخاطبين، وحثهم على اتباع الأوامر والانتهاء عن النواهي بطريقة بلاغية فنية، محاولين بذلك استجلاء مواطن التشبيه في الحديث النبوي الشريف، وكيف يجعل منه صلى الله عليه وسلم أسلوبا حجاجيا.

الحديث الأول

ونبدأ أولا بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحوض: فعن أَبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صَلى الله عليه وسَلم قال: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَذُودَنَّ رِجَالًا عَنْ حَوضِي، كَمَا تُذَادُ الغَرِيبَةُ مِنَ الإِبِلِ عَنِ الحَوضِ»[8].

وتظهر معالم الصورة في هذا الحديث الذي يبدأه الرسول صلى الله عليه وسلم بالقَسم (والذي نفسي بيده)، ويتبعه التوكيد لإثبات الذود(لأذودن). وإذا نظرنا إلى أطراف التشبيه، نجد أن المشبه في كلامه صلى الله عليه وسلم هم (الرجال)، أما المشبه به فهو(الغريبة)، وقد ربط الرسول صلى الله عليه وسلم بين الطرفين بحرف الكاف. وهنا تتجسد لنا الصورة في تلك الأرض الفسيحة، حيث الراعي الذي يقود قطيعا من الإبل إلى الحوض لترتوي بمنبع الحياة، بعد عناء الرحلة، إلا أنه عند وصول الراعي إلى الحوض يذهل بتلك الناقة التي لا راعي لها، فهي غريبة، ذات ملامح غامضة لا تختلف كثيرا عن ملامح أولئك الرجال المبعدين عن الحوض النبوي، الذين تلونوا بألوان الخداع، أولئك الرجال من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، الذين بدلوا وغيروا وأحدثوا بعده أمورا لم يشرعها الله عز وجل، وسلكوا سبلا

أخرى غير سبيل النبي صلى الله عليه وسلم، فيأتون إلى الحوض، إلا أنهم يذادون كما تذاد الناقة أو البعير عند دخولهما في الإبل لتشاركها الطعام والشراب، وصار هذا مضرب المثل "ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل"[9] من خطبة الحجاج، عندما جاء إلى العراق أول مرة. وقد كان من معهود الرعاة أن الراعي، إذا ساق الإبل إلى الحوض لتشرب أن يطرد الناقة الغريبة إذ رآها بينهم، فهي تحمل وباء، وتختلف في تشكيلها العميق عن إبله.

الغريب من الإبل إذن هو الذي يحمل وباءً، ويشكل خطرا على الإبل الأخرى وبالتالي يكون غير مرغوب فيه، مقصيا من أبناء جنسه. متفردا في قهره.

فكيف يتخيل المسلم هذا الأمر ويحيد بعدها عن الحق؟ كيف يتقبل أن يكون منبوذا مدحورا لا قيمة له، ولا حاجة للناس به، كيف يتخيل ذلك ولا يعتبر؟ أليس هذا تشبيه داع للخوف والقلق، أليس سببا كاف للاعتبار؟ إن الحوض منى كل مسلم، ونيله شرف وعزة، والابتعاد عنه ذل ومهانة. والعربي كريم النفس عزيزها، لا يرضى الإهانة أبدا، ولا يرضى الطرد والاحتقار. فإما عيشُ كريم أو موتُ شهيد، لهذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم ذكيا في انتقائه لأسلوب التشبيه، فالمقام لا يستدعي تقديم صورة فنية تستلذها الآذان فحسب، بل يحتاج أسلوبا يَبسُط الصورة أمام العربي، وتكون فيه واضحة لا غبش فيها ولا غبار، فإن وضحت بان المعنى وتحقق المراد، وإن غمضت ضاع وضاع معه الاعتبار، فوضوحها يقرر المعنى في الأذهان، فيقتنع الصحابة عن طريق تصور مشهد يُحتقر فيه المعرضون عن أمر الله ويذادون. وأمر تخييل المشهد بسيط جدا بالنسبة للعربي، وهو ابن الجزيرة العربية، تلك المزينة بالرمال والأنعام، فكيف لا يعرف الإبل وهي سفينته في الصحراء، وكيف لا يعرف غريبها وهي الدخيلة الجرباء التي يطردها كلما خالطت إبله، خوفا من عدواها.

وهذا مطابق لحال المنافقين، شبيه به فكان احتقارهم بالطرد أنسب لحالهم.

وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم هنا، خطاب لأمته جمعاء، يحاول من خلاله إقناعها بتشبيه بليغ في موضعه، تستهويه الأنفس، وتدرك معه أن النفاق لا يأتي لصاحبه إلا بالذل والعذاب، وحرمانه مما يرجوه كل مسلم، وهو نيل قرب النبي والشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم.

وفي تشبيهه صلى الله عليه وسلم إيجاز دقيق، لكنه أدى المعنى وقرب الصورة على أكمل وجه، مما أدى إلى التأثير في النفس واهتزازها، وتقريب الحقيقة بصورة حسية إلى ذهن المتلقي بجامع الهيئة الحاصلة في طرفي الحديث[10].

وإذا تأملنا الكلمات التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في تشبيهه نجد براعة الانتقاء وحسن التخير. وذلك حين قال عليه الصلاة والسلام (لأذودن) ولم يقل أُبعد أو غيرها. إذ كان بالإمكان القول مثلا (لأُبعدن رجالا عن حوضي) لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم، اختار كلمة (أذود) بدلا من أُبعد. ذلك لما تحمله الكلمة من معنى الطرد والدفع، تناسبا مع حال أولئك الذين يقصدهم صلى الله عليه وسلم. فما قاموا به من تبديل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام بأمور لم يشرعها الله عز وجل، يناسبه الطرد والدفع. ولما شبه أولئك الرجال بالغريب من الإبل كان من الأولى أن يستعمل لفظة (أذود) لأنها الأكثر تناسبا مع حال الإبل الغريبة والتي يطردها الراعي لغرابتها والخوف من نقل الوباء لإبله.

الحديث الثاني

ونورد مثالا آخر، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ أَوْ: كَالرَّجُلِ المسْلِمِ لاَ يَتَحَاتُّ ورَقُهَا، ولاَ ولاَ ولاَ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ". قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَوقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ورَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، وعُمَرَ لاَ يَتَكَلَّمَانِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ فَلَمَّا لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا، قَالَ رسول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: "هِيَ النَّخْلَة"[11].

ويبين المناوي المشبه به في الحديث وهو (الرجل المسلم) والنخلة مشبهة، وكان القياس تشبيه المسلم بها ليكون وجه الشبه فيها أظهر لكن قُلب التشبيه إيذانا بأن المسلم أتم منها في الثبات وكثرة النفع.

ثم بين وجه الشبه بقوله **لا يتحات** أي لا يتساقط (ورقها) وكذا المسلم لا تسقط له دعوة. (ولا) ينقطع ثمرها، فإنها من حين يخرج طلعها يؤكل منه إلى أن يصير تمرا يابسا يدخر وهذا حال المسلم، لا ينقطع خيره حيا ولا ميتا (ولا) يبطل نفعها (ولا) يعدم فيؤها بل ظلها دائم ينتفع به. ونلاحظ أنه كرر النفي ثلاثا على طريق الاكتفاء، ووقع في مسلم ذكر النفي مرة واحدة فظن الراوي عنه تعلقه بما بعده فاستشكله وقال: لعل لا زائدة ولعله وتؤتي إلى آخره، وليس كما ظن بل معمول النفي محذوف اكتفاء كما قدر وقرر. ثم ابتدأ كلاما على طريق التفسير لما قبله (تؤتي أكلها كل حين) بإذن ربها فإنها تؤكل من حين تطلع إلى أن تيبس، ثم ينتفع بجميع أجزائها حتى النوى في العلف والليف في الحبال والجذع في البناء والخوص في نحو آنية...وغير ذلك. وكذا المؤمن ثابت بإيمانه، متحل بإيقانه جميل الخلال والصفات، كثير الصلاة والصلات جزيل الإحسان والصدقات، وما يصدر عنه من العلوم والخيور قوت للأرواح وينتفع بكل صادر عنه حيا وميتا. ثم إن ما تقرر من وجه الشبه هو الأنسب، مما أورد في هذا المقام[12].

وقوله (إن من الشجر) بداية تأكيد لمضمون اللاحق (من الشجر)، بتقديم الجار والمجرور. وذلك لإعطاء الذهن فرصة الغوص في أجناس الشجر لإخراج خاص من عمومها. ثم تأتي(شجرة) اسم (إن) المرشح من عموم الشجر، تضيق لمساحة الصورة فلا تسمع إلا شجرة. ثم خبر(إن) (مثلها)، بتأكيد إيقاع التشبيه بمثل هذه الشجرة فيسيح الذهن في مثل هذه الأشجار، مختبرا لصفاتها، مندفعا إليها بدلالة الغرابة في (مثل) التي تنبعث في نفس المتلقي ليصير في شوق إلى معرفة الفريدة المختارة التي أضيفت إلى(ضمير) الشجرة لتنصب دلالة الغرابة على الشجرة المبهمة الاسم، لتتأكد بذلك أشهرية صفاتها، إذ لابد أنها شجرة قد فاقت الوصف بين أخواتها من الأشجار وإلا لما كان لرسول الله أن يشبه بها المسلم، ثم المشبه به(كمثل المسلم) بإضافة(مثل) إلى المسلم لإسباغ دلالة الغرابة عليه، حين تلبسه بصفة الإسلام. هنا يدرك المتلقي أن التشبيه مقلوب؛ لأن الشجرة مهما تكن فإن أوصافها مجلوة ظاهرة أمام المسلم، فأوصافها عقلية، ثم إن إبهام اسمها يورث التشبيه قوة، إذ يؤدي إلى رسم صورتها على تلك الصفة من خلال صورة المسلم على صفته.

وهكذا كان اتجاه النص انتقائيا للمشبه، تؤيده دلالة النخلة في أصلها على انتقاء الشيء واختياره، وما سمي النخل به إلا لأنه أشرف كل شجر ذي ساق[13].

وقد كان الإخبار عنها(هي) إشارة إلى أن صورة الشجرة المختارة، قد تبينت في ذهن المتلقي، وتم اختيارها لتكون النخلة التي بلغت كل مبلغ.

وإذا حاولنا الإلمام بوجه التناسب بين المشبه والمشبه به (النخلة والمسلم)، نجده في كثرة خيرها ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، ويتخذ منه منافع كثيرة، من خشبها وورقها وأغصانها، فتستعمل جذوعا وحطبا وعصيا، وحصرا وحبالا وأواني وغير ذلك. وآخر منها نواها فينتفع به علفا، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها وخير وجمال. كما أن المؤمن كله خير، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه، فيواظب على الصلاة والصيام، وقراءة القرآن والذكر والصدقة والصلة وسائر الطاعات، وهو دائم كما تدوم أوراق النخلة فيها[14]. والنخلة مرتفعة جدا، وكلما رماها الإنسان بالحجر رمته بأطيب الثمر والمسلم مثلها عن الأحقاد والأضغان مرتفع، وكلما اقتربت منه استفدت الكثير الكثير.

وما يمكن استخلاصه أن التشبيه في هذا الموضع، إنما جاء للوعي بصفة المسلم وعيا لا يخالطه شك. وبهذا يكون التشبيه في هذا الموضع ذو وظيفة إقناعية، ونعود هنا لنؤكد على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن معهود العرب، بل دائما يأخذ منه الصورة التشبيهية ليجعله أسلوبا حجاجيا وإقناعيا. فالنخل ثروة من ثروات العرب القدامى، يعرفون جيدا مدى علوه وقوته ومدى صموده في وجه أمواج الرمال، وحرارة الطقس وجفافه. فصار النخل جزءا من حياة العربي وجزءا من طبيعته.

لهذا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم النخلة دون غيرها من الأشجار ليكون التشبيه بها أقرب الصور إلى ذهن السامع، وبالتالي يقتنع اقتناعا تاما بأن المسلم قد حباه الله، وميزه عن غيره، بصبره وقوة إيمانه وترفعه عن المعاصي، فالمسلم الحق الذي لا يرضى بغير الجنة ونيل

رضى الرحمان، له في النخل مثل، وربما لو شبه عليه السلام المسلم بشجر أخر لا يعرفه العربي، لما كان للتشبيه أثر في نفس المسلم، والانسان بطبعه لا يقتنع إلا بما يراه.

الحديث الثالث

ومن الشواهد كذلك ما وردعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ سَمِعَ رسول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَولَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وهَذِهِ الدَّوابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ ويَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيها»[15].

مقصود الحديث أنه صلى الله عليه وسلم شبه المخالفين له بالفراش وتساقطهم في نار الآخرة بتساقط الفراش في نار الدنيا مع حرصهم على الوقوع في ذلك ومنعه إياهم. والجامع بينهما اتباع الهوى وضعف التمييز، وحرص كل من الطائفتين على هلاك نفسه، قال القاضي أبوبكر بن العربي هذا مثل كثير المعاني، والمقصود أن الخلق لا يأتون ما يجرهم إلى النار على قصد الهلكة، وإنما يأتونه على قصد المنفعة واتباع الشهوة، كما أن الفراش يقتحم النار لا ليهلك فيها بل لما يعجبه من الضياء، وقد قيل إنها لا تبصر بحال وهو بعيد، وإنما قيل إنها تكون في ظلمة فإذا رأت الضياء اعتقدت أنها كوة يظهر منها النور، فتقصده لأجل ذلك فتحترق وهي لا تشعر، وقيل إن ذلك لضعف بصرها فتظن أنها في بيت مظلم، وأن السراج مثلا كوة فترمي بنفسها إليه، وهي من شدة طيرانها تجاوزه فتقع في الظلمة فترجع إلى أن تحترق. وقال الغزالي التمثيل وقع على صورة الإكباب على الشهوات من الإنسان بإكباب الفراش على التهافت في النار ولكن جهل الآدمي أشد من جهل الفراش لأنها باغترارها بظواهر الضوء إذا احترقت انتهى عذابها في الحال، والآدمي يبقى في النار مدة طويلة أو أبدا[16].

ونجد أن الأجواء في الصورة مظلمة يسودها التخبط وذلك الظلام يخيف الناس، إلا أنه سرعان ما يضاء بفعل إيقاد ذلك الرجل النار، هذه النار التي هي بمثابة جوهر لطيف مضيء محرق حار والنور ضوؤها. وهنا تصبح النار بؤرة لحالين، إما الانتفاع بنورها، وإما الهلاك بحرقها.

إن مستوى التمثيل في الحديث النبوي، ينطلق من مظاهر التجسيد الحركي الممتد، بحيث نجد حركة المعنى المجرد، وقد اكتست صورة محسوسة متحركة، ذات اتساع واضح وامتداد ملحوظ تكتمل بهما آفاق الحركة مع اكتمال ملامح الصورة[17].

والحجاج في الصورة واضح لا يحتاج إلى تأويل، كما أن تناسب الطرفين في وجه الشبه واضح. فالفراش يغريه الضوء الصادر من المشكاة فيقصده مسرعا دون التفكير في خطورة الأمر، أو احتمال أنه قد يكون فخا سيؤدي به إلى الهلاك، فينكب عليه وتكون حينها نهايته. وهذا حال الإنسان الذي ينساق وراء ملذات الحياة التي تظهر له أنها مثل نور ساطع موح بالحياة وباللذة والاستمتاع، فيقترب منه ولا يستيقظ حتى يجد نفسه غارقا متوغلا في المعاصي. وحينها لا يجد سبيلا للرجوع بل يجد أن ذلك النور المغري ما هو إلا نار تحرقه وتعذبه، والأصعب من ذلك أن هذا العذاب يستمر حتى بعد احتراقه. وهنا كما ذكرنا سابقا يختلف أمر المذنب مع الفراش، إذ إن الفراش بمجرد سقوطه ينتهي عذابه، في حين يستمر عذاب العاصي حتى بعد موته، والله وحده أعلم بمدة العذاب.

ما أبلغه من تشبيه وما أشد وقعه في نفوس قد أثقلتها الذنوب والمعاصي، ولا أقصد هنا المحيطين برسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، بل جميع المسلمين الذين انصاعوا وراء ملذات الحياة، وضعفوا أمامها، فكان المصطفى عليه السلام كعادته ذكيا في اقتناء أساليبه وصوره، وحاول إقناعهم بما يعرفونه حق المعرفة، فالفراش مألوف عند الجميع، وعلاقته بالضوء الذي يحرقه قصة يعيشها معه الإنسان كل ليلة، فيراه وهو بتهوره متجه نحو الضوء الذي يستهويه، لكن سرعان ما يحرقه، وهذا حال الذين اتبعوا أهواءهم، وغرتهم الحياة الدنيا، فصاروا خلفها راكضين، ونحو العذاب متجهين. فكيف لا يخاف المسلم العذاب وكيف لا يعتبر من تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو يرى مصيره بعينيه كل ليلة، يرى كيف سيحرق ويعذب، وكيف سيتحول إلى رماد سحيق إذا اتبع هواه، وله في الفراش العبرة الكبرى. وبهذا يكون

رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد اختار التشبيه الأنسب والأقرب للمخاطبين، وأوضح لهم خطورة متبع الشهوات بأسلوب فني، جمع بين الإمتاع والإقناع والانتفاع.

الحجاج في الصورة الاستعارية

إن الاستعارة هي العنصر الآخر في تشكيل الصورة الفنية للحديث النبوي الشريف، وأقول هنا أنها هي الأسلوب البلاغي الثاني الموظف في الحجاج توظيفا قويا.

والاستعارة في اللغة: من استعار الشيء منه طلب أن يعطيه إياه عارية ويقال استعاره إياه[18].

وللاستعارة في اصطلاح البلاغيين عدة معان، نذكر منها تعريف الجرجاني الذي يقول فيه: "الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية"[19].

والاستعارة تختلف عن التشبيه في كونها تطورية أكثر، إنها توحد بين الطرفين توحيدا تاما، بحيث يصبح في مقدور أحدهما أن ينوب مناب الآخر، فهي بذلك ليست تشبيها مختصرا وإنما هي شكل بلاغي تخيلي له وجوده المستقل عن التشبيه. وطبيعة صورتها تختلف عن طبيعة الصورة التشبيهية، إذ إن الاستعارة تعمل على تكثيف المشاهد الصورية، بالتداخل والاندماج بين طرفيها؛ لذا يمكن أن يحل أحد الطرفين محل الآخر[20]. وذلك لما بينهما من تناسب وائتلاف يسمح لكل طرف أن ينوب عن الآخر. فهي كما قال الجرجاني: "أمد ميدانا، وأشد افتنانا، وأكثر جريانا، وأعجب حسنا وإحسانا، وأوسع سعة وأبعد غورا، وأذهب نجدا في الصناعة وغورا، من أن تجمع شعبها وشعوبها، وتحصر فنونها وضروبها، نعم، وأسحر سحرا، وأملأ بكل ما يملأ صدرا، ويمتع عقلا، ويؤنس نفسا، ويوفر أنسا"[21]. فلغتها مكثفة وتتخطى حدود السطحية في التشابه، لتغوص في الأعماق وتسبر الأغوار، فبها ترتبط الأشياء المتغايرة وغير المترابطة، تخلق الوحدة والتكامل داخل النص. فالصورة التي ترسمها الاستعارة تزيد على الإيحاءات التي تبرزها إيحاءات الحقيقة **بزيادة بيان** وهذا فضلها، وإلا كان التعبير بالحقيقة أجدى وأنفع من التعبير بها، فهي تبث الحركة والتفاعل في النفس، بحيث تتصاعد وتختلف وتتوافق مع الحالات النفسية[22].

ونورد هنا أمثلة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم على الاستعارة، والتي نتبين من خلالها بلاغة الاستعارة في إقناع المخاطب.

الحديث الأول

قال رسول صلى الله عليه وسلم: «**واعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ**»[23].

ومعناه أن الجهاد مآله الجنة، وهو استعارة. يعني أن ظلال السيوف والضرب بها في سبيل الله سبب للفوز بظلال بساتين الجنة ونعيمها، كما أنه سبب موصل إليها"[24].

وجاء في عمدة القاري قوله: (إن الجنة تحت ظلال السيوف) أي: إن ثواب الله هو السبب الموصل إلى الجنة عند الضرب بالسيوف في سبيل الله. وقال ابن الجوزي: "المراد أن دخول الجنة يكون بالجهاد، والظلال جمع: ظل، فإذا دنى الشخص من الشخص صار تحت ظل سيفه، وإذا تدانى الخصمان صار كل واحد منهما تحت ظل سيف الآخر، فالجنة تنال بهذا"[25].

وهذه الصورة من أغزر الصور الاستعارية عمقا في الدلالة، وذلك لعذوبة ألفاظها وقوتها، وجمال اللوحة التي أنتجتها، فالحروف تلمع مع لمعان السيوف البارقة. وقد استعير المشبه به ظلال لمشبه ذهني وهو أثر السيوف الكثيرة الذي يفهم من سياق النص، إذ أصبح للسيوف بفعل الكثرة ظلال. ونيل الجنة يكون في هذا الموقف.

وبهذا تبدو الغاية المبتغاة من هذه الصورة نداءً للراغبين في الجنة، أن يلجوا بابها وهو الجهاد في سبيل الله، والجنة شيء نفيس، ونعيمها نعيم عظيم، والعقل البشري بطاقاته لا يستطيع أن يتوصل إلى معرفة كنهها، ومعرفة ما فيها من النعيم والمتعة[26].

والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، اختار السيوف كآلة للحرب دون غيرها، وذلك توافقا ومعهود العرب الذين كان السيف سلاحهم ومعينهم على من عداهم. وجعل الجنة تحت ظلال السيوف، وذلك ليحث المسلمين على الجهاد، ويدفعهم لدخول ساحة الحرب مجاهدين

في سبيل الله، راجين بذلك الفردوس الأعلى. فهدف المسلمين جميعا دخول الجنة والتمتع بنعيمها، لذا وجب عليهم التضحية في سبيلها، إلا أن الجهاد ومواجهة العدو، أو بتعبير أدق مواجهة الموت من أصعب السبل، ففيها يقتحم المسلم ساحة الهيجا، تاركا وراءه أهله وأحبابه، مواجها الموت، الذي صار سيد الموقف أنذاك، لكن في الموت حياة للمجاهدين، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[27]. وهذا ما يحاول الرسول صلى الله عليه وسلم إقناع المسلمين به.

فاستعان على ذلك بصورة استعارية، تلامس قلوب المسلمين وتخاطب عقولهم، حتى يصيروا أكثر رغبة في الجهاد وإقبالا عليه، لا مرغمين ومجبرين، فقال: (تحت ظلال السيوف). وأكد كلامه بـ قوله: (واعلموا)، ولم يقل تخيلوا، أو ما شابه، وفي الكلام يقين على أن الجنة هناك، تحت ظلال السيوف. وبهذا يصبح السيف ملاذ المسلم، وسفينته التي يعبر بها من الدنيا الفانية إلى جنة الخلد الباقية. وبهذا فكلما حارب المسلم إلا وزاد حبه للجهاد أكثر، وصلته به أوثق لأنه يتخيل الجنة تحت السيوف، ويراها قريبة منه كقرب السيف من رقبته.

إن أمر الجهاد صعب، والاقتناع به يستدعي جرأة وعزيمة كبيرين، كما يحتاج أيضا قناعة كبرى، فالمجاهد في سبيل الله باتخاذه قرار الجهاد يكون قد اختار الموت، وطبيعة البشر تشبثها بالحياة، لكن الجنة منى كل مسلم، ونيلها حلم يراوده، لهذا اختار الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب، ليقنع مخاطبيه، ويجعلهم أكثر حماسا لاقتحام الساحة، وكلٌ يرى جنته في سيف عدوه، فيقاتل ويضرب هذا وذاك، غير آبه بالدم المدفق ولا بالموت المحقق.

الحديث الثاني

ومن أمثلة الاستعارة التي اعتمد فيها الرسول صلى الله عليه وسلم التشخيص قوله: «**إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْ خَلْقِهِ، قَالَتِ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهُوَ لَكِ**، قَالَ رسول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ: **فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾**[28]،[29].

وفي هذا الحديث تم إسناد القول إلى الرحم، وكأنها إنسان حي يكلمه الله عز وجل. وقد شبهت حالة الرحم هنا وما هي عليه من الافتقار إلى الصلة والقطيعة بحال مستجير يأخذ بذيل المستجار به وحقو إزاره، ثم أدخل صورة حال المشبه في جنس المشبه به، واستعمل في حال المشبه ما كان مستعملا في المشبه به من الألفاظ بدلائل قرائن الأحوال، ويجوز أن يكون استعارة مكنية بأن يشبه الرحم بإنسان يستجير بمن يحميه ويذب عنه ما يؤذيه، ثم انعقد على سبيل الاستعارة التخييلية ما هو لازم المشبه به من القيام ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة، ثم رشحت الاستعارة بأخذ القول.

وقال القاضي عياض: "الرحم التي توصل وتقطع إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم، وإنما هي قرابة ونسب يجمعه رحم والده ويتصل بعضه ببعض، فسمي ذلك الاتصال رحما". والمعاني لا يتأتى منها القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها بالعرش ضرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك وتعظيم شأنها وفضيلة واصلها وعظيم إثم قاطعها بعقوقه، ولهذا سمي العقوق قطعا، والعق الشق كأنه قطع ذلك السبب المتصل[30].

والملاحظ في هذا الحديث أن الرحم في صورة كائن حي، يتكلم ويحاور ويطلب ويستجاب لطلبه، إنها تستعيذ بالله من القطيعة، فيعيذها ويعد من يصلها بالوصل، ومن قطعها بالقطع، وما أعظم الكارثة لمن يقطعه الله، إذا لم يصل رحمه، والتشخيص القائم على الاستعارة المكنية أدى وظيفة دينية بتصويره للرحم في هيئة كائن حي. إنها قصة تقوم على حوار قصير بين الرحم والخالق سبحانه وتعالى[31].

والاستعارة في هذا السياق، أدت وظيفة إقناعية وبلاغية رائعة، وصورت مشهدا في منتهى الدقة والوضوح. ونظرا لأهمية الموضوع ولضرورة صلة الرحم بين المسلمين، وما تعُود به من نفع على واصلها، ونظرا كذلك لما تسببه من عقاب لقاطعها، جاء الحديث على شكل حوار دار بين الله عز وجل وبين الرحم، فشُخصت الرحم وصارت شخصا عاقلا يكلمه لله عز وجل. وهذه الصورة الفنية التي صورها الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت متناسبة مع أهمية الموضوع ومع حال ذلك المخاطب الذي يحتاج بطبعه إلى أساليب تحمل من الجمال والإقناع

ما يجعله خاضعا ممتثلا لما يلقى عليه. فصحيح أن المسلمين في عصره صلى الله عليه وسلم كانوا يتحلون بصفات حميدة، كما كانوا يؤدون العبادات على أكمل وجه؛ فيُصلون ويصومون ويتصدقون. إلا إن صلة الرحم كانت عبادة لا يدرك الجميع قيمتها، فلا يهتمون بها كثيرا، ويصبون اهتمامهم نحو العبادات الأخرى. وليُشعر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أصحابه خاصة، وأمتُه عامة، بأهمية هذه العبادة، توسل الاستعارة كأسلوب بلاغي إقناعي دون غيرها من الأساليب الأخرى، التي لو كانت مكانها لما أدت نفس الوظيفة، ولما كان لها ذلك الوقع والأثر الذي حتما أحدثته الاستعارة، عندما جَعلت الرحم وهو جماد إنسانا يتكلم. والحوار في الحديث ليس مع أي أحد بل مع رب العزة. والمستمع بمجرد سماعه إن الرحم تكلمت، ومع من؟ مع الله عز وجل، سيستغرب وسيحاول إشباع فضوله لمعرفة القصة كاملة وأخذ العبرة منها، إذ إن كل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا تخلو من فائدة.

وبعد عرض الحوار وانتهائه صلى الله عليه وسلم من تصوير المشهد، دعا أصحابه رضوان الله عليهم لقراءة قوله عز وجل: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾[32]. ومجيؤه صلى الله عليه وسلم بالآية الكريمة تأكيدا لما قاله، وكأنه يسد كل ثقوب الشك وينهي المسألة بأمر حاسم لا مجال فيه للتردد، وليتيقن صلى الله عليه وسلم أن الصورة أحدثت وقعها في نفس المستمع، واقتنع اقتناعا تكون نتيجته وصل الأرحام، وجعلها عبادة كباقي العبادات.

حجاجية الصورة الكنائية

إن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيصال العقيدة وتعاليم الدين، عن طريق التعبير بالصور الحسية، جعل للكناية مساحة ضيقة في نصوص الحديث الشريف، وهي لا تقل قيمة عن التشبيه والاستعارة.

والكناية في اللغة: كنى عن كذا كناية تكلم بما يستدل به عليه ولم يصرح وقد كنى عن كذا بكذا فهو كانَ والرجل بأبي فلان وأبا فلان كنية سماه به[33].

وقد عرفها الجرجاني بقوله: "والمراد بالكناية ههنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه"[34]. أي أن يريد المتكلم معنى معين، كالكرم مثلا فلا يدلل عليه بما هو يباشره في أصل معناه، وإنما يعمد إلى ما يجاوره ويرادفه في الإشارة، فيعبر عنه بالثاني ويكون الثاني دليلا للتعبير عن المعنى. والكناية عبارة صورية عرضية ومباشرة تشير إلى معنى غير معناه الأصلي، وبعكس الاستعارة هنا يعمل كل من المعنيين مجازا لمعنى ثالث، يغطيهما معا فهناك المعنى المفهومي، وكذلك المعنى الانزياحي، والتوليف بينهما بمعنى ثالث، يشير إليها، وهنا بؤرة الجمال لأسلوب التصوير الكنائي. ويمكن بقليل من التذوق الفني لهذا الأسلوب، أن يقوم بدور مهم في رسم الصورة الفنية[35].

الحديث الأول

ومن الأمثلة أيضا ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أَي الصدقة أفضل؟ **قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وأَنْتَ صَحِيحٌ حَرِيصٌ، تَأْمُلُ الغِنَى، وتَخْشَى الفَقْرَ، ولاَ تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، ولِفُلاَنٍ كَذَا، وقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ»**[36].

يتقرر في الحديث أن الصدقة الأعظم والأفضل أجرا، هي التي تكون في حالة الصحة لا في حال القرب من الموت. وفي الحديث مقابلة بين نموذجين من الناس، لكل منهما طبعه الخاص الذي جُبل عليه، فقد صورهما الحديث، واحد يتصدق في حال الصحة، وأخر يتصدق في حال النزع. فالإنسان في حال الصحة يكون حريصا، يخشى الوقوع في مصيدة الفقر، ويأمل ويتطلع إلى الغنى، فإذا وصلت الروح الحلقوم، فإنه لا يبالي أين ذهب ماله، إذ ينتهي طمعه؛ لأنه بعد قليل مغادر الحياة. والإنفاق الحقيقي يكون في الحالة الأولى (الصحة)، وتتضح الصورة الكنائية أكثر من خلال قوله: (بلغت الحلقوم)، ففيها إثارة وحركة وتصوير، فهي تفصل بين الحياة والموت وهي كناية عن النزع وقرب انتهاء حياة الإنسان[37]. وهذه الصورة تكاد تكون منتزعة من صورة قرآنية حيث يقول تعالى: ﴿**فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ**﴾[38].

وحجاجية الصورة الكنائية واضحة في كلامه صلى الله عليه وسلم، فقد أدت دورا إقناعيا مُهما، ذلك أن الصدقة من أجلّ العبادات، والمسلم يدرك ذلك جيدا، لكن الذي قد لا يدركه، أن هاته الصدقة تحكمها شروط، ويحكمها وقت، فإن هو لم يلتزم بهذا الوقت ما عادت صدقته تنفعه ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**[39]﴾، فالآية الكريمة والحديث النبوي، يبينان ضرورة الإنفاق في سبيل الله، ذلك قبل فوات الأوان، لهذا وظف الرسول عليه السلام الكناية، حتى يتمكن من إقناع المسلمين، ويجعلهم يتصدقون في أوج قوتهم وعطائهم. حتى يثمر ذلك العطاء، أما إذا فات الأوان وشدت الروح الرحال، فسيكون الحال حال فرعون الذي لم يعلن إيمانه حتى أدركه الغرق، فقال ﴿**آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[40]. فأجابه الله ﴿**آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**[41]﴾. لم ينفع فرعون إيمانه يوم أدركه الغرق، كذلك لن تنفع المسلم صدقته يوم تبلغ روحه الحلقوم.

الحديث الثاني

ومن الأمثلة أيضا قوله **صلى الله عليه وسلم**: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ، حَتَّى يَخْرُجَ رَجُلٌ مِنْ قَحْطَانَ، يَسُوقُ النَّاسَ بِعَصَاهُ**»[42].

وقوله صلى الله عليه وسلم يسوق الناس بعصاه، كناية عن الملك شبهه بالراعي وشبه الناس بالغنم. وهذا الحديث يدخل في علامات النبوة من جملة ما أخبر به صلى الله عليه وسلم قبل وقوعه ولم يقع بعد[43]. وهو أيضا كناية عن تسخير الناس واسترعائهم كسوق الراعي الغنم بعصاه[44]. وربما هذا الرجل القحطاني هو الذي يقال له الجهجاه فقد ذكره مسلم في صحيحه قال: "حدثنا محمد بن بشار العبدي، حدثنا عبد الكبير بن عبد المجيد أبو بكر الحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر، قال: سمعت عمر بن الحكم، يحدث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لَا تَذْهَبُ الْأَيَّامُ واللَّيَالِي، حَتَّى يَمْلِكَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ الْجَهْجَاهُ» قال مسلم: هم أربعة إخوة: شريك وعبيد الله وعمير وعبد الكبير بنو عبد المجيد[45].

والصورة في الحديث حسية منتزعة من البيئة العربية، فعادة الراعي في الصحراء أن يسوق الإبل والدواب بعصاه، وبذلك فالصورة ستؤدي وظيفة خطيرة، فالناس كالأنعام إذ يخرج رجل من بني جنسهم، يقودهم بعصاه. وهو ترهيب من ذلك اليوم الفجيع، والفعل (يسوق) يدل على الحاضر، إلا أنه يتجه في دلالته نحو المستقبل، وقوله بعصاه يؤشر إلى الأداة التي يستخدمها ذلك الرجل، فهي مخيفة ملتصقة بيده بدلالة حرف الإلصاق (الباء)، فهي لا تخطيء من تصيبه، ولا تسقط من يده أبدا، وفي ذلك دلالة على درجة الإذلال التي يمر بها الناس آنذاك. وهي كناية عن انقيادهم إليه، وذكر العصا فيه دليل على خشونته عليهم، وعسفه بهم، إذ يسوقهم بعصاه، كما تساق الماشية، وذلك لشدة عنفه وعدوانه[46].

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أحاديثه يحاول إقناع الناس بما يناسبهم ويناسب أحوالهم، فنجد في حديثه هذا قد رسم صورة مستوحاة من البيئة العربية التي يعرفونها حق المعرفة، وهي صورة الراعي الذي يسوق غنمه، وسكان الجزيرة العربية يعرفون هذا المشهد جيدا، ولا شك أنهم سيفهمون المعنى من ورائه وسيقتنعون ويعتبِرون. فالمشهد ليس عاديا إذ الناس كالأنعام يسيرون بأمر من الراعي الذي يحمل عصاه، ويرفض ألا يتخلف أي واحد منهم عن القطيع، وقد يصل به الأمر إلى الضرب. والصورة تصور مشهدا مخيفا، والكناية في هذا الموضع تدل على خضوع الناس وانقيادهم، حين لا يبقى في آخر الزمن سوى شرار الناس، بعد إرسال الله تعالى لروح طيبة تقبض روح كل مؤمن. ودليل ذلك ما جاء في فتح الباري لابن حجر حين قال: "وأن المراد بأمر الله هنا الريح التي تقبض روح كل من في قلبه شيء من الإيمان ويبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة"[47]، ولعل هذا ما جعل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، يستعمل فعل (يسوق) لما له من دلالة على الإخضاع والإكراه. وعليه فشرار الناس لا يناسبهم سوى العنف والسوق بالعصا كالبهائم. والمسلم لا يرضى أن يكون كالبهيمة أبدا، فهو الذي كرمه الله عن سائر المخلوقات، قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا**﴾، وقال: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**[48]﴾، فتشبيههم بالأنعام احتقار لهم. والعربي ذو الأنفة لا يرضى إلا أن يعيش كريما، مالكا زمام أمره، لا منساقا وخاضعا.

خاتمة

إن أحاديثه صلى الله عليه وسلم وسيلة من وسائل البيان في نشر الدعوة الإسلامية، وزرع الخير في قلوب المسلمين واقتلاع أصول الشر منها، وحث الناس على ما فيه صلاح لهم، في أمر دينهم ودنياهم. ومن هنا كان لا بد من التأثير في هذا المخاطب، بشتى الوسائل والأساليب، فنجد أحاديثه صلى الله عليه وسلم، لا تكاد تخلو من تشبيهات، واستعارات، وكنايات وغيرها. وبهذا ولا شك ارتقى الحديث النبوي الشريف من حيث الفصاحة والبلاغة والصياغة بعد القرآن الكريم. فكان أفصح وأبلغ نص بعد القرآن، وكان صلى الله عليه وسلم أفصح العرب، ذلك أنم أوتي جوامع الكلم، وفواتحه وجمال الأسلوب ذا الخيال الرائع والتصوير الفني الدقيق. فتعددت الصور البيانية في الخطاب النبوي، وذلك لأغراض متعددة، كما سبق الذكر: دينية وسياسية واجتماعية وبلاغية.

فاستعمل التشبيه، وما أبلغ التشبيه إذا ناسب موضعه وناسب حال من خوطب به، وبلاغة التشبيه النبوي لا تتوقف على نوع الأداة قسوة وضعفا، ولا على وجه الشبه إفرادا وتركيبا، وإنما تكمن في التوافق والانسجام بين عناصر التشبيه ومدى تفاعلها مع بعضها ضمن سياق يناسبها وصولا إلى تحقيق الغرض المراد. لأن التفكير ينطلق من الخبرة الحسية، إلا إنه لا ينحصر فيها ولا يتقيد بها، لذا ينطلق فكر المتلقي من المشبه به الحسي إلى المشبه العقلي محفلا بفكرة مصورة في نفسه من خلال البعد الحسي، وذلك آكد في الاقناع.

كما استعمل صلى الله عليه وسلم الاستعارة وهي عنصر آخر في تشكيل الصورة الفنية، للحديث النبوي الشريف، حيث إنها تسهم في تكثيف المشاهد الصورية، بالتداخل والاندماج بين طرفيها، وذلك لما بينهما من تناسب وائتلاف يسمح لكل طرف منها أن يحل محل الآخر. ولا ننسى أسلوب الكناية وهو الأبلغ من الحقيقة، ففيه تصويرا حسيا للمعنى وتجسيدا له مع شاهده، وهو أثبت في النفس وأرسخ. وقد استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى الأوامر والنواهي.

الهوامش:

(1)**صحيح البخاري** كتاب التيمم رقم الحديث 335، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، 1422هـ.

(2)- مازن موفق الخيرو، جماليات **الصورة الفنية في صحيح البخاري دراسة أسلوبية**، الطبعة الأولى: 1435هـ-2014م، طبع بموجب إذن طباعة من المجلس الوطني للإعلام بدولة الإمارات. جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ص: 28-29.

(3)- الرافعي: مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر (ت: 1356هـ)، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة الثامنة – 1425 هـ2005م، ص 220-221.

8- ابن فارس، (ت395)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر 1399هـ 1979م، 243/3.

5- ابن رشيق: أبو علي الحسن القيرواني الأزدي (ت: 463 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة:1401هـ - 1981 م، ص: 286.

6- عبد العزيز عتيق، علم البيان، دار الآفاق العربية، الطبعة الأولى: 1428هـ-2006م، ص: 41.

7- عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص: 41-42.

8- صحيح البخاري، رقم الحديث 2367، (112/3)

9- الجاحظ، البيان والتبيين، (311/1).

10- مازن الموفق، جماليات الصورة الفنية، ص 38-39.

11- صحيح البخاري، رقم الحديث 4698، (6-79).

12- المناوي، فيض القدير، (206/1)

13 - ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة: نخل

21- التشبيه في الحديث النبوي الشريف، ص: 89-90-91.

15- صحيح البخاري، (102-8) رقم الحديث 6483،(102-8).
16- ابن حجر: أحمد علي أبو الفضل العسقلاني الشافعي(ت852هـ). فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة بيروت 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز،(464/6).
17- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 53.
18 - مجمع اللغة العربية بالقاهرة(إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، المعجم الوسيط، دار الدعوة، باب العين.
19- الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 30.
20- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 60.
21- الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 42.
22- جماليات الصورة الفنية، ص: 61.
23- صحيح البخاري،(22/4)، رقم الحديث: 2818.
24- المناوي، فيض القدير، (362/3).
25- العيني، عمدة القاري، (115/14).
26- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 24.
27- سورة أل عمران، الآية، 169.
28- سورة محمد، الآية: 22.
29- صحيح البخاري، رقم الحديث: 5987، (5/8).
30- العيني، عمدة القاري، (93/22).
31 - مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 71.
32- سورة محمد، الآية: 22.
33 - مجمع اللغة العربية، باب الكاف.
34- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 66.
35- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 77- 78.
36- صحيح البخاري، رقم الحديث: 2748، (4/4).
37- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 82-83.
38- سورة الواقعة، الآية: 83-84.
39 - سورة البقرة، الآية 254.
40 - سورة يونس، الآية 90.
41 - سورة يونس، الآية 91
42- صحيح البخاري، رقم الحديث: 7117، (58/9).
43- ابن حجر، فتح الباري، (546/6).
44- العيني، عمدة القاري، (87/16).
45- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري(ت 291هـ)، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت. (2232/4).
46- مازن موفق، جماليات الصورة الفنية، ص: 80.
47- ابن حجر، فتح الباري، (164/1).
48 - سورة محمد الآية 12.